يجدر التنويه على أن المنزهة هم أهل السنة ومن وافقهم على مقالتهم ، وموقفهم من صفات الله والتعريف به ، وسط بين الغلو والإفراط عند المشبهة والمجسمة وكذلك التفريط فى الجانب الآخر عند المعطلة .

وإذا تسائلنا عن عقائد الناس عندما بدأ الإسلام فتوحاته الكبرى ، فسنجد أن الديانات كانت إما سماوية كاليهودية والمسيحية والمجوسية ، على اختلاف آراء العلماء فيها ، وكذلك ديانات غير سماوية ، نبتت من الأرض ولم تنزل من السماء ، وقد خالط المسلمون الموحدون من صحابة رسول الله ، ﷺ ؛ أهل البلاد المفتوحة ودعوهم للإسلام ، فدخل الناس فى دين الله أفواجاً ، فصار الناس أصناف مختلفة من حيث قربهم وبعدهم من عقائد الدين الجديد فى نقائه وصفائه ، فهناك الصحابة وأبناؤهم ، والمسلمون الجدد الذين ما زالوا متاثرين بعقائدهم القديمة ، وثقافاتهم الدينية التى آمنوا وتربوا عليها ، بما تحمله من تقاليد وتصورات نشأوا وشبوا عليها، وكل ذلك غريب عن الدين الجديد ، زد على ذلك من بقى على دينه القديم ، ولكنه اختلط مع الفاتحين الجدد واحتك بهم فى عقائدهم وثقافاتهم وجادلهم جدالاً عنيفًا دفاعاً عن نفسه وهويته ، فأخطأ من أخطأ بقصد أو بغير قصد فى فهم وتأويل العقيدة الجديدة ، ومن هنا نشأ التشبيه والتجسيم ، أو النفى والتعطيل كنتيجة نهائية لهذا الاحتكاك الحضارى الجديد ، وتغلغل فى نسيج المسلمين الجدد .

لقد كان للأعراب نصيب فى تشويه التوحيد ، ولغيرهم عن سوء قصد ، فانتشرت الاسرائيليات والروايات والأخبار التى تروج للفكر المادى حول الألهية ، كبديل مقبول لعقائدهم القديمة التى ورثوها من عبادة بوذا أو مانى أو النار والبددة والأصنام والأوثان والكواكب والنجوم . وافتروا على رسول الله الكذب ، وانتشرت هذه الموجه كتيار عنيف بتأثير بعض الفرق الإسلامية فى عقيدة المسلمين .

هذا عن بدايات التأثير والتأثر وسبب دخول الأفكار والعقائد بشكل غير مسبوق على المسلمين وتوحيدهم النقى الذى حفظته عناية السماء [1] .

---

(١) الكوثرى : مقدمة تبيين كذب المفترى ؛ ص ١٠ .

وقد انتشرت المجسمة فى بيئات متعددة ، وزادت حدتها فى خراسان ، مما جعل بعض علمائها يضجون ، وينكرون هذا التيار ، فنشأ جهم (ت ١٢٨هـ) كرد فعل معاكس فأفرط فى النفى حتى قال : « إن الله لا يوصف بما يوصف به العباد ، ولم يفرق بين الاشتراك فى الاسم ، والاشتراك فى المعنى ، والممنوع هو الثانى دون الأول ، بشرط كونه وارداً فى الشرع » [١] .

وتولى الدعوة للتشبيه جماعة من غلاة الشيعة ، ولم يستمر فيهم طويلاً سيما بعد انخراط علمائهم فى المذهب الاعتزالى ، والحشوية من المحدثين والتى بلغت ذروتها فى المذهب السنى ؛ سيما بعد تبنى الدولة للمحدثين والقصاص فى عهد المتوكل العباسى (ت ٢٤٧هـ) ، فقالوا أقوالاً منكرة وصوروا الله على شكل إنسان له أعضاء وأبعاض ؛ إما روحانية أو جسمانية، وافتروا على الله وأجازوا الانتقال والنزول والصعود والاستقرار والتمكن متأثرين تأثراً كبيراً بالرواقية القديمة والإفلوطنية المحدثة، ووجدوا فى ظاهر النص مايساعدهم على دعوتهم وروجوها بين العوام [٢] .

* * *

(١) المصدر السابق ؛ ص ١٢ .

(٢) انظر الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ؛ ص ٩٧ – ١٠٠ . طبع مكتبة الكليات الأزهرية .

١- التجسيم والتشبيه عند الشيعة

وراجت بين بعض فرق الشيعة آراء خالصة فى التجسيم والتشبيه فى ذات الإله ، على يد كبار مشايخهم كهشام بن الحكم [١] وهشام بن سالم الجواليقى [٢] ، الذى نسج على منواله فى التشبيه ، يقول **الشهرستانى فى الملل والنحل** : « وكان **هشام بن الحكم** من متكلمى الشيعة ، وجرت بينه وبين أبى الهذيل مناظرات فى علم الكلام ، منها فى التشبيه ، ومنها فى تعلق علم البارئ تعالى [٣] :

حكى ابن الراوندى (ت ٢٩٨هـ) عن هشام أنه قال : إن بين معبوده وبين الأجسام تشابهًا ما ، بوجه من الوجوه ، ولولا ذلك لما دلت عليه ، وحكى الكعبى (ت ٣١٩هـ) عنه أنه قال : هو جسم ذو أبعاض ، له قدر من الأقدار ، ولكن لايشبه شيئًا من المخلوقات ولا يشبهه شئ .

ونقل عنه أنه قال : هو سبعة أشبار بشبر نفسه ، وأنه فى مكان مخصوص ، وجهة مخصوصة ، وأنه يتحرك ، وحركته فعله ، وليست من مكان إلى مكان [٤] .

وقال : هو متناه بالذات ، غير متناه بالقدر . وحكى عنه أبو عيسى الوراق (ت ٢٤٧هـ) أنه قال : إن الله تعالى مماس لعرشه ، لايفضل منه شئ عن العرش ، ولا يفضل من العرش شئ عنه [٥] .

هذه هى صفة الله عند هشام بن الحكم الرافضى الشيعى فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، وظل ذلك الحال قائمًا فى خلافة بنى العباس الذين وجدوا لأنفسهم فيها حظًا ثقافيًا كبيراً ، وإن لم يكن لهم نصيب من الحظ السياسى مماثلاً ، فتكون المذهب وظهرت آراؤهم فى شكل متكامل ، فارقوا به أهل السنة من حيث لا رجعة فى عدة أمور أساسية ، منها الغلو فى التشبيه والتجسيم .

---

(١) هو أبو محمد : متكلم مناظر كان شيخ الإمامية فى وقته ، صنف كتبًا منها « الامامة » ، و « القدر » توفى نحو ١٩٠هـ / نحو ٨٠٥م ؛ راجع الفهرست لابن النديم ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢) هو مولى بشر بن مروان ، كنيته أبو محمد ، وأبو الحكم :كان من سبى الجوزجان روى عن الإمامين أبى عبد الله ، وأبى الحسن ، وهو من شيوخ الرافضة . (راجع الفهرست ، ص ٢٠٥ ، والانتصار ، ص٦) .

(٣) الشهرستانى : الملل ؛ ١ / ٢١٦ .

(٤) المصدر السابق نفسه ، والفرق بين الفرق ؛ ص ٦٥ ،

(٥) المصدر السابق نفسه ، ومقالات الأشعرى ؛ ١ / ١٠٢ .

أما تصور هشام بن سالم الجواليقى لربه ، فكان لا يقل تطرفًا وسماجة عن تصور صنم أو وثن فى الجاهلية فقال : «إنه ، تعالى ، على صورة إنسان ، أعلاه مجوف ، وأسفله مصمت ، وهو نور ساطع يتلألأ ، وله حواس خمس ، ويد ورجل ، وأنف ، وأذن ، وفم ، وله وفرة سوداء ، هى نور أسود ، لكنه ليس بلحم ولا دم» . [1] هذا بالإضافة لآرائه الضالة فى النبوة والإمامة التى أكمل بها فراه على الله .

ولم تكن هذه هى عقيدة الشيعة فى ربهم وحسب ، بل تعدى غلاتهم المدى وقالوا بما هو كفر صراح ، فقالوا بألوهية على وأبنائه ، وسائر أئمتهم بحلول الله فيهم كالسبيئة [2] والباطنية [3] .

* **الغلاة** : وغلاة الشيعة أخرجوا أئمتهم من حدود المخلوقية وحكموا .

فيهم بأحكام الإلهية ، فربما شبهوا واحداً من الأئمة بالإله ، وربما شبهوا الإله بالخلق ، وهم على طرفى الغلو والتقصير، وترجع أراؤهم إلى تأثرهم بمذاهب الحلولية ، ومذاهب التناسخية ، ومذاهب اليهود والنصارى ، إذ شبهت اليهود الخالق بالخلق ، وفعلت النصارى العكس فشبهت الخلق بالخالق ، وكلا المقالتين شر مبين ، وتسربت هذه الشبهات المادية الخالصة والتصورات الأرضية إلى عقائد الشيعة الغلاة ، فتجوزت وترخصت فى فهمها حتى حكمت بأحكام الإلهية فى حق بعض الأئمة .

ويقرر مؤرخوا المقالات أن التشبيه والتجسيم بالأصل هو وضعية شيعية ، ويرجع ذلك لتأثرهم بالمذاهب والأديان والفرق السالفة الذكر ، ولطبيعة التطرف التى جبلوا عليه أيضا ، وإن خالف متأخروهم متقدميهم فعادوا إلى عقائد أهل السنة بعدما تمكن الاعتزال فيهم ، وذلك عندما استدركوا بالعقل ما فاتهم من تبنى الخرافات والأساطير ، فوجدوا أن عقائد أهل السنة أقرب للمعقول ، وأبعد من التشبيه والحلول [4] . ويمكن عرض بعض عقائد هذه الفرق الغالية ومنهم السبائية .

---

(١) الشهرستانى : الملل ١ / ٢١٧ ، وانظر الاسفرائينى : التبصير ؛ ص ٢٣ .

(٢) انظر الحديث عنها فى البغدادى : الفرق بين الفرق ؛ ص ٣٣٣ ، وكذلك مقالات الإسلاميين ، ١ / ٨٥ .

(٣) انظر الحديث عنهم فى عقائد آل محمد ، ص ٣ – ٨٢ ، والتبصير ؛ ص ٨٦ .

(٤) انظر الشهرستانى : الملل ؛ ١ / ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

السبائية وعقيدتها فى على ؛ كرم الله وجهه :

هم أصحاب عبد الله بن سبأ ، صاحب اليد الطولى فى الفتنة العثمانية ، والزعامة الثورية التى عمل على إشعال نارها وإزكائها بين الناس فى العواصم الإسلامية لتأليب الناس على الحكم والخليفة ، وتم له ما كان وكما خطط هو وأعوانه ، قالوا – أى المؤرخين –عنه مقالات عديدة أقربها للصحة أنه يهودى حاقد ، أراد إسقاط الدولة وتشويه العقيدة ، ولم يفلح فى الحالتين إلا أنه نجح فى تعكير الأجواء فلم تعد لصفائها ونقائها الأول أبداً .

انتهز فرصة تجمع على ، كرم الله وجهه ، باصحابه وجثا على ركبتيه أمامه وقال له أنت أنت ، يعنى الإله ، فذهل الحاضرون وأنكر الإمام على ؛ كرم الله وجهه ؛ مقالته إنكاراً شديداً ونفاه من الكوفة ، وكانت عاصمة الخلافة حينئذ ، إلى المدائن عاصمة الفرس قديمًا ، وعاصمة الولايات الشرقية فى الدولة الإسلامية فيما بعد .

أسلم وفى نفسه غرض خبيث ، وله سابقة فى عقيدته القديمة فقد كان يقول فى يوشع بن نون ، وصى موسى ؛ عليه السلام ؛ وخليفته فى بنى إسرائيل ، نفس مقالته فى على ، كرم الله وجهه ، كما كان أول من زعم بالنص ، بإمامة علىٍّ ، رضي الله عنه ؛ ومن السبائية وعباءتها ظهرت كل فرق الغلاة [1] .

وبعد موت على خرج بمقالة أخرى وهى زعمه بأنه لم يمت ، ولكنه حى ففيه الجزء الإلهى ، ولا يجوز أن يستولى عليه ، وهو الذى يجئ فى السحاب ، والرعد صوته ، والبرق تبسمه ، وأنه سينزل إلى الأرض بعد ذلك فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً [2] !

ويتفق فرق الغلاة على التناسخ والحلول وتأثروا فى ذلك بالمجوس المزدوكية ، والهند البرهمية ، والفلاسفة والصابئة ، ومذهبهم أن الله ، تعالى ، قائم بكل مكان ، ناطق بكل لسان ، ظاهر فى كل شخص من أشخاص البشر ، وذلك بمعنى الحلول .

---

(١) انظر مقالته ؛ البغدادى : الفرق بين الفرق ؛ ص ٢٢٥ ، والجرجانى : التعريفات ؛ ص ٧٩ .

(٢) انظر البغدادى : الفرق بين الفرق ؛ ص ٢٣٣ .

وقد يكون الحلول بجزء ، وقد يكون بكل ، أما الحلول بجزء فهو كإشراق الشمس فى كوة ، أو كإشراقها على البلّور .

أما الحلول بكل ، فهو كظهور ملك بشخص ، أو شيطان بحيوان ، ومراتب التناسخ أربع : النسخ ، والمسخ ، والفسخ والرسخ ، وأعلى مراتبه الملكية أو النبوة ، وأسفل مراتبه الشيطانية أو الجنّية [1] فالنفوس الناقصة التى بقى شئ من كمالاتها ، فإنها تتردَّدُ فى الأبدان الإنسانية ، وتنتقل من بدن إلى آخر حتى تبلغ النهاية ، فيما هو كمالها من علومها وأخلاقها . فحينئذ تبقى مجردة مطهرة عن التعلق بالأبدان . ويسمى هذا الانتقال نسخًا .

وقيل : ربما تنازلت إلى الأبدان الحيوانية ، فتنتقل من البدن الإنسانى إلى بدن حيوانى يناسبه فى الأوصاف ، كبدن الأسد للشجاع والأرنب للجبان ، ويسمى مسخًا .

وقيل : ربما تنازلت إلى الأجسام النباتية ، ويسمى رسخًا .

وقيل : إلى الجمادية كالمعادن والبسائط أيضًا ، ويسمى فسخًا [2] .

وهكذا نجد هذه الفرق الغالية قد نجحت إلى حد ما فى إقرار عقائد جديدة فى الوسط الإسلامى لم تكن موجودة من قبل ، وحاولت على نشرها وإشاعتها باسم الانتصار لآل البيت والتشيع لهم ، وهو ما يجعلنا لا نستبعد وجود أيدى مغرضة من وراء هذا الفكر تحقق سوء قصدها ومحاولة هدمها للإسلام دين ودولة فى العصر العباسى مما جعل الخلفاء والعلماء يقفون لهذا التيار بالمرصاد والمطاردة لزعمائه حتى انحصر فى أماكن محدودة من العالم الإسلامى [3] .

* * *

(١) انظر ؛ الشهرستانى الملل ؛ ٢٠٥ وما بعدها .

(٢) انظر ؛ التفتازانى : شرح المواقف ؛ ٢ / ٤٤٤ .

(٣) انظر رسالتنا عن المجوس والثنوية ، طبع دار الآفاق العربية .

٢- التجسيم والتشبيه عند أهل السنة

أ - **مقالة الكرامية** : هم أصحاب أبى عبد الله محمد بن كرام (ت ٢٥٥هـ) وانتهى بآرائه إلى التجسيم والتشبيه ، وينص على أن معبوده على العرش استقراراً ، وعلى أنه بجهة فوق ذاتاً ، وأطلق عليه اسم الجوهر ، وأنه أحدىُ الذات ، أحدى الجوهر ، وإنه مماس للعرش من الصفحة العليا ، وجوَّز الانتقال والتحول ، والنزول عليه ، ومنهم من قال إنه على بعض أجزاء العرش ، وقال بعضهم : امتلأ العرش به ، وصار المتأخرون منهم إلى أنه تعالى بجهة فوق ، وأنه محاذ للعرش .

وقالت فرقة منهم تسمى العابدية : إنه بينه وبين العرش من البعد والمسافة ما لوقدر مشغولاً بالجواهر لاتصلت به ، وقال محمد بن الهيصم[١] : إن بينه وبين العرش بعداً لا يتناهى ، وإنه مباينللعالم بينونه أزلية ، ونفى التحيز والمحاذاة ، وأثبت الفوقية والمباينة [٢] .

وأطلق أكثرهم لفظ الجسم عليه ، والمقاربون منهم قالوا : نعنى بكونه جسماً أنه قائم بذاته ، وهذا هو حد الجسم عندهم ، وبنوا على هذا أن من حكم القائمين بانفسهما أن يكونا متجاورين أو متباينين ، فقضى بعضهم بالتجاور مع العرش ، وحكم بعضهم بالتباين ، وربما قالوا :

كل موجودين ، فإما أن يكون أحدهما بحيث الآخر ، كالعرض مع الجوهر ، وإما أن يكون بجهة منه ، والبارى ، تعالى ، ليس بعرض إذ هو قائم بنفسه ، فيجب أن يكون بجهة من العالم . ثم أعلى الجهات وأشرفها جهة فوق ، فقلنا هو بجهة فوق بالذات حتى إذا رؤى من تلك الجهة [٣] .

ثم لهم اختلافات فى النهاية . فمن المجسمة من أثبت النهاية له من ست جهات ،

---

(١) انظر ترجمته فى لسان الميزان ؛ ٥ / ٣٥٤ .

(٢) ابن ابى الحديد يستبعد هذه المقالة الساذجة من ابن الهيصم وقال إنه كان اذكى من ان يذهب عليه فساد هذا القول ، راجع شرح نهج البلاغة ؛ ١ / ٢٩١ .

(٣) يحتاج القائلون بالجهة لتغيير معتقدهم بعد أن أثبت العلم أن جهة فوق غير متعينة مع كروية الأرض ..!

ومنهم من أثبت النهاية له من جهة تحت ، ومنهم من أنكر النهاية له فقال : هو عظيم» [1] .

ويأتى بعد ذلك مدرسة مقاتل بن سليمان [2] أو المقاتلية بخراسان وهى بيئة كانت خصبة لانتشار التشبيه والتجسيم ، وقد تأثر مقاتل بالثقافات الشرقية وظهر ذلك فى آرائه كالديصانية والمرقونية والمزدكية ، وكذلك تأثر باليهود وموقفهم المادى من الألهية عند تناوله لقضية الصفات ، ولمقاتل تفسير مملوء بآرائه وقد انتشرت وازدهرت مدرسته بين العامة الذين استهوتهم هذه الآراء ، المشحونة بالتجسيم [3] .

وكان للدعوة إلى التشبيه والتجسيم أثر واضح فى القول بالحلول والاتحاد بعد ذلك عند الحلاج [4] ، وأبى حلمان الدمشقى ، وأبى عبد الله محمد بن سالم البصرى [5] حتى وصلت إلى ابن عربى [6] فى القرن السادس الهجرى فقال بالاتحاد ، وابن تيمية الحنبلى [7] الذى كان ثمرة لآراء فلسفية خالصة وبيئة خصبة نبت فيها التشبيه ، وبين خرافات الصوفية التى سموها حقائق ، إلى ومزاعم المشبهة تأرجحت عقيدة التوحيد طويلاً .

جهم بن صفوان :

وكما أن لكل فعل رد فعل مساو له ، ومقابل له فى تطرفه ، ظهر فى الجانب الآخر جهم بن صفوان (ت ١٢٨هـ) ، فأسرف فى النفى والتعطيل ليصرف عن التصور الإلهى أى تجسيم أو تشبيه بخلقه ، فنفى كونه حيًا عالمًا ؛ لأنهما من صفات

---

(١) انظر الشهرستانى : الملل والنحل ، ١ / ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٢) هو مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدى ، أبو الحسن من أعلام المفسرين ت ١٥٠هـ راجع ابن خلكان : وفيات الأعيان ؛ ٢ / ١١٢ .

(٣) البغدادى : تاريخ بغداد ؛ ١٣ / ١٦٠ .

(٤) هو الحسين بن منصور الحلاج ، أبو المقيت ت ٣٠٩ هـ .

(٥) محمد بن احمد بن سالم ت ٢٩٧ هـ .

(٦) أبو بكر محمد بن على بن محمد بن عربى ، الحاتمى الطائى الأندلسى ، محى الدين بن عربى ت ٦٣٨هـ .

(٧) أبو العباس تقى الدين ، ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحرانى الدمشقى الحنبلى ت ٧٢٨ هـ .

الخلق ، وأثبت كونه قادراً فاعلاً خالقًا ؛ لأنه لا يوصف أحد من خلقه بشئ من القدرة والفعل والخلق . . ! [١]

ويعلل الملطى (ت ٣٧٧هـ) سبب تسمية الجهمية بهذا الاسم بقوله : « . . لأن الجهم بن صفوان كان أول من اشتق هذا الكلام من كلام السمنية ، صنف من العجم بناحية خراسان ، وكانوا شككوه فى دينه ، حتى ترك الصلاة أربعين يومًا ، وقال : لا أصلى لمن لا أعرفه ، ثم اشتق هذا الكلام ، وبنى عليه من بعده » [٢] .

ويذكر الملطى بعض مقالات الجهمية التى أنكرها فيقول :

١- منهم صنف من المعطلة ، يقولون : إن الله لا شئ ، وما من شئ ، ولا فى شئ ، ولا يقع عليه صفة شئ ، ولا معرفة شئ ، ولا توهم شئ ، ولا يعرفون الله ، فيما زعموا ؛ إلا بالتخمين فوقعوا عليه اسم الألوهية ، ولا يصفونه بصفة يقع عليه الألوهية . .

وحقيقة لقد غالت هذه الفرقة فأنكرت ما علم ضرورة من دين الله ، فالله شئ لا كالأشياء وهو مشيأُ الأشياء كما يقول القاسم بن إبراهيم (ت ٢٤٦ هـ) وغيره . قال تعالي : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ . . الآية ﴾ [سورة الانعام ١٩] . وثبت فى الخبر قال رسول الله ، ﷺ ، : « ليسئلنكم الناس عن كل شئ حتى يسئلونكم : هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ . . فقولوا : الله خالق كل شئ ، وقبل كل شئ ؛ وهو بعد كل شئ » [٣].

ومن الجهمية من يبالغ فى النفى ولكن بشكل آخر إيجابى بعض الشئ فيقولون : إن الله شئ وليس كالأشياء ، لا تقع عليه صفة ولا معرفة ، ولا توهم ، ولا نور ولا سمع ولا بصر ولاكلام ، ولا تكلم وأن القرآن مخلوق ، وأنه لم يكلم موسى ولا يكلم قط ؛ وأن الله خلق قولاً وكلامًا ، فوقع ذلك القول والكلام فى مسامع من شاء الله من خلقه ، فبلغه السامع عن الله بعد ماسمعه فسمى ذلك قولاً وكلامًا ! » [٤] .

---

(١) انظر المقريزى : الخطط المقريزية ٢ / ٣٤٩ .

(٢) الملطى : التنبيه والرد : تحقيق الكوثرى القاهرة ١٩٩٣م ؛ ص ٩٩ .

(٣) انظر المطرزى : المغرب ؛ ١ / ١٠١ وما بعدها وانظر القاسم بن ابراهيم : المسترشد ؛ بتحقيقنا ؛ ص ٢٦ .

(٤) المصدر السابق ؛ ص ٩٦ ، ٩٧ .

وربما مال جهم إلى تنزيه الألهية من الصفات الإزلية ، لما شعر أنها توحى بالمشاركة مع المخلوقين ، ولما نظر فوجد أن أهمها صفة العلم قال بأن علم الله محدث ، ولم ينفه عن الله كما قال الملطى ، والذات لا توصف بصفة حتى لا يُرمى التوحيد بالكثرة ، وهذا العلم المحدث هو أحدثه ، ليعلم به ، إذًا هو أحدثه أى خلقه ، فهو غيره ، وبذلك تخلص من مأزق ذات واحدة وصفات متعددة ، فهى واحدة من وجه متكثرة من وجه آخر ينافى التوحيد ، ولم يحتج للقول بأنها عين الذات أو قول الأشاعرة لا هى الذات ولا هى غيرهما فى إلغاز محير .

كذلك توحى الصفة القديمة بالتغير والتحول وهما محالان على الله ، فكيف يمكن الجمع بين الأزلية والبقاء ،التغير والتحول فى آن واحد ؟! فضلاً عن أن الصفات لها تعلق بالحوادث فالعلم له تعلق بالمعلوم من جهة وتعلق بالعالم من جهة أخرى ، وبتعدد العلم يتعدد المعلوم ، وهكذا وجد الجهم نفسه أمام مشاكل فلسفية لم يقو على تحملها أو حل مشكلها ، وغرق غيره لأذنيه عندما أخطأ فى فهمها فوقع فى التشبيه والتجسيم ، فبالغ هو فى النفى .

لقد رغب الجهم فى تنزيه الله عن كل تغير أو تعلق بالحوادث ، ووجد فى العلم والإرادة والقدرة تعلق بالحوادث ، فالعلم غير المعلوم ، والقدرة عن المقدور ، والإرادة غير المراد ، وتوهم تعدد الذات إن كانت هى العلم والقدرة والإرادة أو موصوفة بها على وجه الأزلية والقدم بالتعدد ، والتغير وجودًا وعدمًا ، وهو ما لا يليق بالله مطلقًا ، كما أنها مقالة تعنى كون الذات محلاً للحوادث وهو لا يجوز على الله ، هكذا تصور وانتهى إلى ما انتهى إليه ، وكلا الاتجاهين جانب الصواب .

حرص السلف على تنزيه الذات من لوث المشبهة والمجسمة ، فكان لهم منهج محكم يردون فيه المتشابه إلى المحكم ، فى ظل ما يفهم من اللغة العربية لغة القرآن الكريم ، وبعيداً عن الإغراق فى التشبيه أو الإغراب فى التأويل ، ولعل هذا ما مال إليه بعض علماء الإسلام فلجأوا إلى التفسير البيانى لآيات القرآن الكريم فى وسطية محمودة ، وأخذ يحيى بن حمزة العلوى بهذا المنهج وآثره على غيره فى رسالته الجواب الناطق فى تنزيه الخالق [1] .

---

(١) انظر الرسالة بتحقيقنا ، وطبع دار الآفاق العربية .

ولكن ما لايفهم من ذلك هو إثبات أهل السنة آيات الصفات الخبرية كما هى ، دون تاويل ، خاصة الأوائل منهم كالأشعرى[1] صاحب المذهب ، وتمسكهم بمقالة مالك[2] أن الاستواء معلوم والكيف مجهول ، وهى فى حد ذاتها مقالة فلسفية تنتهى إلى القول بالتشبيه الخالص ، فلا معنى للقول بأن لله يد ولكن ليست كأيدينا أو رجل ولكن ليس كارجلنا ، أو نفس ولكن ليست كنفوسنا ، فتصور هذه الصفات ، مجرد تصورها ، وتوهمها ، يعنى وجودها ولكن على كيفية لا يعرفها الإنسان !..[3]

وكأن هذه المقالة فى ضلالها تجمع بين التشبيه من جهة والتنزيه من جهة أخرى ، فى تناقض عجيب ، سلم به بعض الدارسين ، إرضاء لأنفسهم أو لبعض المتاخرين لإغراض فى صدورهم اللهيعلمها ، بعيدة عن روح الحق والعلم .

فالله ليس له شكل ولا مثل ولا شبيه ، ولا يقارن بماديات أوحسيات مثلنا أو غير مثلنا ؛ لأن ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى الآية ١١] .

وذم أهل السنة الانحراف عند كل من المشبهة الانحراف عند كل من المشبهة والمجسمة جميعًا ، وعدوا تصوراتهم باطل قبيح ، وتجاوزا عن سواء القصد والسبيل فقالوا : « قد وقع قوم فى تشبيه ذاته بذات المخلوقين ، فوصفوه بالحد والنهاية والكون والمكان ، وأقبح قولاً منهم من وصفوه بالجوارح والآلات ؛ فظنوا أن بصره فى حدقة ، وسمعه فى عضو ، وقدرته فى يد .. إلى غير ذلك ، وقوم قاسوا حكمه على حكم عباده ، فقالوا : ما يكون من الخلق قبيحًا فمنه قبيح ، وما يكون من الخلق حسنًا فمنه حسن !!.. وهؤلاء كلهم أصحاب التشبيه ، والحق مستحق للتنزيه دون التشبيه ، مستحق للتوحيد دون التحديد ، مستحق للتحصيل دون التعطيل والتمثيل »[4] .

وأهل السنة لم يفرقوا بين الذات ووصفها ، والذات وفعلها ، وجعلوا الأمر

---

(١) على بن إسماعيل بن إسحاق مؤسس المذهب الأشعرى ت ٣٢٤هـ .

(٢) الإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبحى صاحب الموطأ وإمام دار الهجرى ، وصاحب المذهب المعروف ت ١٧٩هـ .

(٣) راجع الأشعرى : الإبانة ؛ ص ٨٥ - ٩٤ .

(٤) القشيرى : اللطائف ؛ ٣ / ٣٤٥ .

كله قصة واحدة ، وقياس الأفعال الإلهية على أفعال مخلوقيه من باب التقريب الجائز ، ومرد ذلك إلى حكم الله ، تعالى ، حيث يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ .. ﴾[1]، ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾[2] ، ﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾[3] ، ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ ﴾[4] ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢) ﴾[5] ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴾[6] ، ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾[7]، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) ﴾[8] وغير هذه الآيات كثير ، فهل يعقل أن يخالف الله ما أمر ، وقد أشار إلى أن ذلك لا يحدث منه ثم يقول بعض خلقه إن القبيح من أفعاله والظلم من أفعاله ليس بقبيح ولا ظلم؟!.. يبدو أن ذلك شطط التنزيه المبالغ فيه والذى يتجاوز الممكن والمعقول ، ولا يوافق نصاً ولا غيره .

وكان يلزم من تقديس الفعل الإلهى عند أهل السنة أن ينزهوه عن فعل القبيح ، إلا أن العكس هو الذى حدث ، فجعلوا القبيح فى فعله ليس بقبيح ، وهذا يعنى أن للقبيح معنيين ، معنى يخص الله ، وآخر يخص العبد ، ففعل الشر من الله ليس بقبيح، ومن الناس قبيح ، وهو أمر غريب ، ارتضوه لأنفسهم وجادلوا عنه .

ونحن لا نسلم للمعتزلة شططهم فى القياس ، واعنى به قياس الغائب على الشاهد، والخالق على خلقه ، والذى تعدى حدوده فى قياس الأفعال إلى قياس الصفات [9] ، وغاب عنهم تقدير الاعتبارات الإنسانية والمقاصد والدواعى ، وكلها أشياء فارقة بينهم وبين خالقهم فى فعله وسنحاول تناول هذه القضية فيما بعد [10] .

ويضرب البغدادى للمشبهة [11] مثلاً بأنه لا فرق بين من يشبه ربه بصفات حية مادية إنسانية ، ومن يعبد إنساناً مثله ، أو يعبد صنماً ، وهو محق فى كلامه .

أما القشيرى فيعد ذلك إلحاداً فى آيات الله وأسمائه وصفاته ،فأهل التمثيل زادوا

---

(١) سورة النحل : الآية ٩٠ .
(٢) سورة الأنعام : الآية ١٥٢ .
(٣) سورة المائدة : الآية ٨ .
(٤) سورة الأنعام : الآية ٧٣ .
(٥) سورة النساء : الآية ١٢٢ .
(٦) سورة النساء : الآية ٨٧ .
(٧) سورة النساء : الآية ٥٨ .
(٨) سورة يونس : الآية ٤٤ .
(٩) انظر القاضى عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ؛ ص ٥٦٤ . طبع مكتبة وهبة – القاهرة .
(١٠) انظر ابن رشد : مقدمة المناهج ؛ ص ١٣٩ . طبع مكتبة الشباب – القاهرة .
(١١) انظر البغدادى : أصول الدين ؛ج ص ٣٣٧ .

فألحدا ، وأهل التعطيل أنقصوا فألحدوا ، والمعيار الصحيح والسليم عند النظر إلى أسماء الله وصفاته هو أن نقتصد بين الإفراط والتفريط ، وتتخذ منهجًا وسطًا لا ميل فيه ولا تطرف فلا تمثيل ولا تعطيل [١] .

رأى أبى حنيفة فى تيارى المشبهة والمعطلة :

لقد سقط المشبهة والمجسمة فى مأزق كبير لميلهم إلى السذاجة ونهيهم عن النظر والاستدلال وإعمال العقل بالكلية فى معرفة ربهم ، ووقوفهم عند ظاهر النص وحسب، وكذلك سقط المعطلة والجهمية عندما بالغوا وافرطوا فى النفى السلبى والتأويل غير الرشيد .

وهكذا انتهى الأمر بظهور تيارات التشبيه [٢] والتجسيم فى العالم الإسلامى فى الوسط السنى متمثلاً فى مقاتل ومدرسته والحلاج ومدرسته والسلمى ومدرسته ، وفى الوسط الشيعى متمثلاً فى هشام بن الحكم ومدرسته وهشام بن سالم الجواربى ، ومن جاء بعدهم كمحمد بن الهيصم ، وعاصم بن خشيش ، أقول انتهى الأمر فى هذا الاتجاه إلى هذه الحال ، فظهر الاتجاه المقابل ، فأثرا فى البيئة والمجتمع الإسلامى بشدة وأزكوا روح التطرف والجنوح فى العقائد ، فى بيئة مفتوحة لا تضع قيوداً على الفكر ولا الثقافة ، ولذلك نجد الإمام أبا حنيفة [٣] يعلق تعليقاً مريراً يصور حقيقة الأمر بقوله : « أتانا من المشرق رأيان خبيثان : جهم معطل ، ومقاتل مشبهه » [٤] . وكان يذم مقاتل بشدة ، وينسب إليه تحريف العقائد .

إتهام المعتزلة بأنهم من النفاة :

تعود مؤرخو العقائد والفرق من أهل السنة كالبغدادى (ت ٤٢٩هـ) والاسفرائينى

---

(١) الأشعرى : المقالات ١ / ٣٥٨ . تحقيق الشيخ محى الدين عبد الحميد .

(٢) البغدادى : تاريخ بغداد ٣ / ١٦٤ ، بيروت . د . ت

(٣) النعمان بن ثابت بن زوطى التيمى بالولاء ، صاحب المذهب المعروف وافقه واروع اهل زمانه ، رفض القضاء ومات بالسجن سنة ١٥٠هـ .

(٤) البغدادى : تاريخ بغداد ٣ / ١٦٤ .

(ت ٤٧١هـ) والشهرستانى (ت ٥٨٠هـ) من إطلاق لفظ النفاة أو المعطلة على المعتزلة ، فهل هم نفاة للصفات حقيقة ؟

إن للمعتزلة رأى واضح فى الصفات ، ولم ينفوا الصفات بحال ، وسننظر إلى كلامهم ، وكلام غيرهم فيهم ، والغريب أن الزاعمين نفيهم للصفات ، يقرون بعد ذلك مذهبهم فى صفات الله وأراءهم ، ويأتون بتقسيماتهم للصفات !

يقول القاضى عبد الجبار [١]: «إن صفاته - تعالى - إما أن تكون للذات أو لمعنى أولا للذات ولا للمعنى» فكيف ينفيها من يقسمها هكذا ؟!.. ويقول بعد ذلك : «وجملة القول فى هذه الصفات أنها لا تخرج عن وجهين:- **أحدهما**: ما له متعلق ، نحو كونه قادراً حيًا موجوداً ، وما يختص به لذاته من الصفة التى تقتضى هذه الصفات». وهذا تقسيم آخر يدل على فهمهم لقضية الصفات .

وفى كتابه «الأصول الخمسة» يعقد فصلاً عن الكلام فى كيفية استحقاقه ، تعالى، لهذه الصفات ، فيقرر أنها مسألة خلاف بين أهل القبلة ، والمتكلمون يقسمونها إلى صفات ذات ، وهى التى يوصف بها الله ، ولا يوصف بأضدادها كالعلم والقدرة والحياة ، وإما صفات معنى ، وهى التى يوصف الله بها لمعنى ، وإما صفات أفعال وهى التى يوصف الله بها وبأضدادها .[٢]

ويختلف المعتزلة وغيرهم فى التقسيم :

١- فأبو على الجبائى [٣] وهو من كبار المعتزلة يرى أنه ، تعالى ، يستحق هذه الصفات الأربع التى هى كونه قادراً عالمًا حيًا موجوداً لذاته .

٢- وأبو هاشم [٤]يقول انه يستحقها لما هو عليه فى ذاته ، وذلك أنه فهم الصفات على أنها أحوال .

٣- أما أبو الهذيل العلاف [٥] (ت ٤٣٥ هـ) ، وهو من أئمة المعتزلة وله مدرسة

---

(١) القاضى عبد الجبار : المحيط بالتكليف ؛ ص ١٠٧ . طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) المصدر السابق ؛ ص ١٠٨ .

(٣) محمد بن عبد الوهاب بن سلام ، أبو على الجبائى ت ٣٠٣ هـ .

(٤) هو عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائى ت ٣٢١هـ .

(٥) هو محمد بن الهذيل العبدى شيخ المعتزلة فى عصره ت ٢٣٥هـ .

تعرف بالهذيلية ، ويعتبر أول من نظم قواعد الاعتزال ووضع أصوله ، يقول : إنه تعالى عالم بعلم هو هو ، وأراد به ما ذكره الشيخ أبو على ، ولا يقصد بذلك أن العلم هو ذاته تعالى .

٤- ورأى سليمان بن جرير [١] وهو من الصفاتية أنه ، تعالى ، يستحق هذه الصفات لمعان لا توصف بالوجود ولا بالعدم ، ولا بالحدوث ولا بالقدم [٢] .

٥- وقال هشام بن الحكم (ت ٢٧٩ هـ) وقد أشرنا إليه من قبل على أنه من كبار الشيعة المجسمة وغلاتهم ، قال : إن الله تعالى عالم بعلم محدث .

٦- أما الكلابية ، وهم أتباع عبد الله بن كلاب شيخ الصفاتية [٣] ، فقالوا بأنه تعالى يستحق هذه الصفات لمعان أزلية وأراد بالأزلى القديم [٤] ، ويعلق القاضى عبد الجبار على رأى الكلابية : «إلا أنه لما رأى المسلمين متفقين على أنه لا قديم مع الله ، تعالى ، لم يتجاسر على إطلاق القول بذلك» .

٧- وجاء بعد ذلك الأشعرى وصرح بأن الله ، تعالى ، يستحق هذه الصفات لمعان قديمة . .[٥]

غير أن فلسفة المعتزلة حول الصفات دارت حول ما يثبت لله ، تعالى ، وما ينفى فأثبتوا ما يليق بذاته ويعد مدحًا وكمالاً ، ونفوا ما لا يليق بذاته ويعد ذمًا ونقصانًا [٦] .

لقد نظر المعتزلة إلى موقف غير الموحدين من النصارى وغيرهم ، وكيف وقعوا فى التعدد والحرج ، وكذلك رأوا المشبهة والمجسمة وما بلغوه بجهلهم وتخبطهم ، ورغبوا فى تصفية تصور المسلمين للألوهية من كل أثر حسى ، وما لحقه من روايات المحدثين والقصاص من إسرائيليات .

---

(١) هو سليمان بن جرير الزيدى مؤسس السليمانية .

(٢) انظر ابن حجر : لسان الميزان ؛ ٣ / ٨٠ .

(٣) عبد الله بن سعيد التميمى ت ٣٤٥هـ .

(٤) ابن النديم : الفهرست ؛ ص ١٨٠ .

(٥) انظر القاضى عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ، ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

وربما تأثر المعتزلة بآراء فلسفية فى الموضوع ، كما يذكر الشهرستانى « اقتبس هذا الرأى من الفلاسفة – يقصد العلاف – الذين اعتقدوا أن ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه » (١) .

إلا أننا نجزم بأن رأى المعتزلة فى الصفات إسلامى خالص ، جاء وليد حرصهم على نقاء التوحيد من التصورات المشبوهة ، وهم أقرب الفرق فى ذلك إلى العقل والنقل حيث أثبتوا الصفات ، وقالوا بأنها عين الذات ، وخلافهم بعد ذلك يتساوى مع خلاف غيرهم من المتكلمين ، بعداً وقرباً ، من حيث التفسير والتعليل أو حتى التأويل .

وعموماً كان لوسطية أهل السنة الأثر المحمود فى نفوس المسلمين ، وهم جملة علماء الأمة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين والصوفية وغيرهم ، والتصور الإسلامى للألوهية قائم على التنزيه ويرقى عن التوهم والتخيل : « ومهما تصور فى نفسك فالله، عز وجل ، بخلافه » (٢) .

ويمتدح ابن تيمية الأشعرى فيقول : « أثبت الأشعرى الصفات الخبرية بالسمع ، وأثبت بالعقل الصفات العقلية التى تعلم بالعقل والسمع ، فلم يثبت بالعقل ما جعله معارضاً للسمع ، بل ما جعله معاضداً له ، وأثبت بالسمع ما عجز عنه العقل » (٣) .

وبالغ المعتزلة فى ذمهم لأهل السنة فى مسألة الصفات ، لقولهم بأزليتها وقدمها ، ولقولهم ببعض الصفات التى يوصف بها خلقه كالموجودية والشئ والواحد والذات والمعلوم والمتكلم والباقى ، ولا نزاع فى أن مثبت هذه الصفات من أهل السنة والمعتزلة وغيرهم ليس بمشبه ولا يقال عليه ذلك .

غير أننا نرجع خطأ المعتزلة إلى المنهج ، فقد أفرطوا فى استخدام القياس ، وكذلك أفرطوا فى التجريد وهو ما جعلهم يميلون إلى الوصف السلبى ، فاتهموا بالنفى وبأنهم

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ، ١ / ٦٤٠ .

(٢) انظر : John Alden : Islam , 189 -

(٣) ابن تيمية : تعارض العقل والنقل ، ٧ / ٩٧ تحقيق د/ رشاد سالم .

يعبدون وهمًا ! قال الرازى (ت ٦٠٦هـ) فى أساس التقديس : « إن المشابهة من بعض الوجوه ، لا توجب أن يكون قائله موصوفًا بانه شبه الله تعالى بالخلق ، وبانه مشبه » [١] .

والآن نود أن نستعرض فكر المتكلمين فى الصفات السلبية ومدى وضعهم لأسس يتعرفون بها على الألوهية ، وبدلاً من أن يلجأوا إلى الإثبات لجأوا للنفى ، فما تعليل هذه الظاهرة ؟! .

* * *

(-١) الرازى : أساس التقديس ؛ ص ٢٥٦ . طبع مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة .